تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

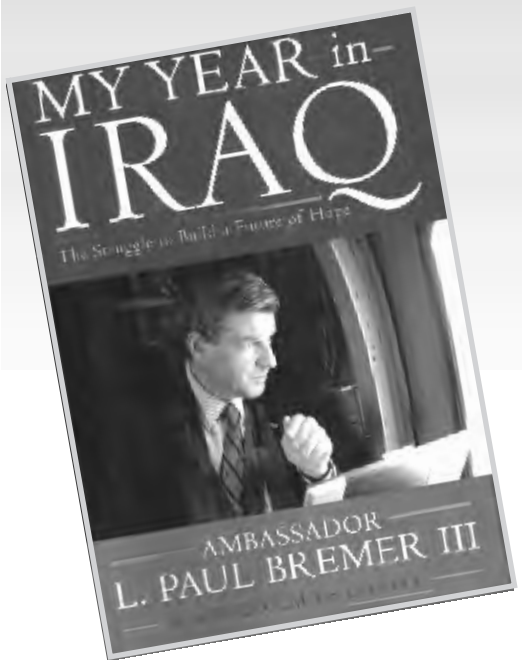

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الحادية عشرة)

ترميم أمّة ممزقة
الحلّة ، العراق
٢٢ أيار ، ٢٠٠٣

أزاحت مجرفة بضعة أقدام من التراب ، كاشفةً عن مقبرة جماعية تبلغ مساحتها ملعباً لكرة القدم. بالرغم من أن مئات من الرجال والنساء كانوا يعملون في الغبار ، كان المشهد هادئاً بشكل غريب. كان الرجال يحفرون بأياديهم العارية ، والنساء ، اللواتي يرتدين عباءاتهن السود ، يجمعن حزم العظام في شكل أكوام منسّقة ، ويربطنها بأكياس بلاستيكية.

* مختار القرية يحمل بريمر رسالة الى جاك شيراك

الفصل الثالث

في وقت متأخّر من ذلك الصباح، رايان وسكوت وأنا، استقلّينا السيارة، وسلكنا الطريق الرئيسية، بمحاذاة نهر الفرات، متوجهين إلى حقل الموت هذا، الذي يبعد ستين ميلاً عن بغداد. كانت الحرارة، المنبعثة من الطين المشوي لهذه الأرض اليباب، عالية.

"انظر هناك، سيدي،" قال أحد رجال المارينز، الذين معنا، مشيراً باتجاه اليسار.

رجالٌ يسلّمون كتلاً من عظام- بعضها ينفر من مزق الدشاديش (ثياب طويلة، من دون قبة، يرتديها الرجال العرب) أو العباءات- إلى أناس يفتشون عن أقارب لهم، ذهبوا ضحية المجازر. لحم الجثث، اختفى، بالطبع، باستثناء بعض الألياف الجلدية، ولكن، كانت لا تزال توجد كمية مدهشة من الشعر بين العظام البيض.

أحياناً كان يتمّ التعرّف على رفات الرجل أو الإمرأة من خلال ملابس مميزة، أو بطاقة تموين ممحوّة، أو سن ذهبية نافرة. هوية أحد أفراد العائلة المقتولين، كانت غالباً تؤدي إلى معرفة هوية أخرى، بجانبها، وبالتالي إلى معرفة أفراد قرية بكاملها. وإذ تربط النسوةُ العظام، رأيتُ ما كان جندي المارينز قد شاهده: رفات طفل صغير، بحجم راحة الكف، مع خصلة شعر سوداء، لا تزال عالقة على الجمجمة، تُرى بوضوح من وراء غطاء البلاستيك. شعرتُ عندئذ بالغثيان.

الحلّة هي مركز قلب الإسلام الشيعي في العراق، وتقع قرب مدينتي الحج، كربلاء والنجف. ومثل العديد من المدن والقرى العراقية الأخرى في المنطقة، عانت الحلّة بشكل مخيف خلال انتفاضة الشيعة، المجهضة، عام ١٩٩١، ضد صدام حسين، حين كان جيشه المهزوم ينسحب من الكويت. ولأنهم تصرفوا بناءً على وعود غامضة من تحالف حرب الخليج المنتصر، استولى المتمردون الشيعة، بقيادة جنود فارين من الجيش، مع تسليحهم الخفيف، على قرى ومدن، وأعدموا مسؤولين بعثيين، وهددوا نظام صدام على نحو جدي.

وكان ردّ صدّام سريعاً ووحشياً. القوات الموالية للنظام- وحدات الحرس الجمهوري التي يهيمن عليها الضباط السنّة، وتشكيلات عسكرية أخرى من أجهزة المخابرات- اقتحمت الجنوب الشيعي. الرجال في سنّ الخدمة العسكرية اعتقلوا وقُتلوا. طائرات هليوكبتر مقاتلة دكّت وقصفت القرى. تجمعات بشرية بأكملها- رجال ونساء وأطفال- نُقلت في شاحنات إلى مواقع معزولة مثل هذا، وماتوا رشاً بالبنادق، وكُدست جثثهم في أكوام، وطُمرت في الحفر.

"هذا يشبه معسكرات الموت، أثناء المحرقة اليهودية،" قلتُ.

"نعم، سيدي،" قال جندي المارينز، حائراً في أمره.

"كتائب الموت المتحركة بقيادة هتلر، مع الجيش، والشرطة، قتلوا أكثر من مليون شخص في أماكن معزولة مثل هذه ...يهود، غجر، سجناء حرب، رجال دين كاثوليك، "...قلتُ شارحاً.

حين عدنا أدراجنا إلى السيارة، المتوقّفة في ظلّ إحدى شجيرات الصبار، لوّح لنا رجل يرتدي قميصاً ملطخاً بالطين، ودعانا للتوقف. قادنا إلى خمس أكوام من العظام، موضوعة باتساق على الشراشف.

"أمي،" قال بإنكليزية مكسرة، مشيراً إلى إحدى الجماجم، والدموع تنسكب على خدّيه الوسخين. "أخت ...أخت ...ابن." وأمسكت قبضتاه برشاش متخيل. "الجيش يقتل."

قابلنا مختار القرية، الذي استعرض معنا صوراً ملتقطة حديثاً توثّق نبش قبور الحلّة. "من فضلك، سعادة السفير،" قال. "خذ هذا الدليل إلى جاك شيراك. الفرنسيون هم الذين أبقوا السفاح صدّام في السلطة."

"بدل أن آخذ هذه الصور إلى جاك شيراك،" اقترحتُ، "لماذا لا تقوم أنت، ورئيس بلدية الحلة، بدعوة جاك شيراك ليرى هذه القبور بنفسه؟"

حقل الموت؟ هذا كان يمثل وجه النظام القديم، الذي هزمه جيشنا خلال ثلاثة أسابيع.

لاحقاً، ذلك النهار، في بلدة الحلّة، أتيحت لي فرصة استراق نظرة على العراق الجديد، حين قابلتُ الشيخ فرقد القزويني. كانت شخصيةُ الشيخ تتمتّع بحضور لافت، حيث يصل طوله إلى ستة أقدام، وثلاثة إنشات. بدا أكثر طولاً، بسبب عمامته السوداء السميكة، والتي توحي بأنه ليس فقط مجرّد إمام، وعالم مسلم، بل ينحدر من سلالة النبي محمد، وهذا ما أعطاه لقب التشريف، "السيّد." بعد سقوط صدام، "حرّر" الشيخ القزويني جامعاً في الحلّة، الذي كان صدام قد أمر ببنائه لتمجيد نفسه.

على شراب بيبسي ساخن، في مكتب القزويني، تكلّم مطولاً عن حلمه بخصوص ذاك الجامع.

"سعادة السفير" قال، صانعاً حركات درامية، "أفكّر ببناء جامعة هنا. سوف أستقدم طلاباً ومعلمين، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، إلى هذه الجامعة، لأدلّل على أن العراق الجديد ينتمي إلى كلّ العراقيين."

وعبر الشيخ عن امتنانه لأمريكا لأنها حرّرت العراق من طغيان صدّام. "أنا أكنّ إعجاباً عميقاً للديموقراطية." مال إلى الأمام، وعيناه تفيضان بالحماس. "يجب أن يصبح العراق الولاية الثالثة والخمسين،" رفع الشيخ صوته عالياً.

كانت مشاعره واضحة، رغم أنّ معلوماته الرياضية لم تكن دقيقة تماماً.

تساءلتُ عمّا يمكن أن يؤول إليه حلم الشيخ القزويني. سأكون سعيداً جداً بأن أزور الشيخ ثانيةً، في يومي الأخير في العراق، بعد أربعة عشر شهرا، لأرى وأتأكد.

ونحن نغادر الحلّة، فكّرنا من المناسب أن نزور بابل، بما أن طريقنا يمرّ من هذا الموقع. لم يكن يوجد دليل على وجود الحدائق المعلقة، حين جازفنا تحت حرارة منتصف الظهيرة، لنرى الصورة المزيفة التي آلت إليها المدينة القديمةُ في ظلّ صدام.

"تبدو مثل ديزني لاند إيست،" قلتُ، وأنا أنظر شزراً إلى بقايا الأجرّ والرسوم المبهرجة على قصر نبوخذ نصّر، الذي أُعيد بناؤه.

كان يمكن لجدران الأجرّ الضخمة، الحمراء اللون، أن تسوّر مطحنةً من فولاذ. كان صدّام قد كثّف من طموحاته في إعادة بناء بابل عام ١٩٩٠، بعد أن تعرّض جيشه لهزيمة نكراء في حرب الخليج. وبالرغم من احتجاجات علماء الآثار الأجانب، أصرّ النظام على البناء مباشرةً فوق أطلال المدينة القديمة، بعد عمليات حفر خاطفة، دفنوا، على إثرها، عدداً لا يُحصى من اللُقى الأثرية، والألواح المسمارية.

كان صدام قد بنى قصراً شخصياً آخر، عالياً فوق تل مرتفع مجاور، يُرى من خلال أقواس هذه الأبنية المرعبة، المشيّدة حولنا.

في القرن السابع قبل الميلاد، كان نبوخذ نصّر، هذا الإمبراطور الذي قهر العديد من الممالك، قد أعاد بناء بابل لتعكس المجد الغابر لحمورابي، وأمر أن يُمهَر اسمه فوق كل حجر أجرية. الآن، أضحت آلاف الآلاف من هذه الأحجار الأجرّية في جدران بابل ممهورةً باسم صدام حسين، وتوضح أنها بُنيت من أجل "مجد العراق."

كان البنّاءون يشيدون هذه الأحجار، فيما الآلاف من الجثث تتعفّن في قبور مدينة الحلّة المجاورة.

"دعونا نغادر هذا المكان،" قلتُ للفريق، غاضباً.

حقول الموت في الحلّة وضعتني وجهاً لوجه أمام أكثر التحديات صعوبةً تواجه التحالف، وتتمثل بالكيفية التي يمكن إرساء الأساس لجيش وشرطة وقوات أمن عراقية.

كان الرئيس بوش قد جعل الأمر واضحاً لي، بأننا سنتجاوز مسألة تغيير النظام، نساهم في خلق "عراق جديد"، متحررٍ من وحشية صدام. على مدى عقودٍ ثلاثة، كان الديكتاتور قد استخدم حزب البعث، والجيش، وجهاز المخابرات لإلحاق التعذيب والبؤس والموت بالعراقيين وجيرانهم. كان يجب أن يتغيّر كل هذا.

ولكن، العديد من العراقيين، وعلى مدى أجيال، خدموا بشرف في القوات المسلّحة. ورغم عقود من القمع، دافع الجنود العراقيون الشيعة بشجاعة عن وطنهم ضد الإيرانيين الشيعة خلال الحرب الإيرانية العراقية، الدموية والطويلة، خلال الثمانينيات. كان الجيش القديم يملك بعض المحترفين الحقيقيين، ولهذا السبب جزئياً، لم يكونوا موضع ثقة صدّام. ناسخاً نظام هتلر عن قصد، أبقى صدام القوة العسكرية تحت سيطرة قوية من خلال أجهزة مخابرات، عدّة، متقاطعة، وعبر تصفية متكررة لقادة كبار، لكي يضمن ولاء القيادة العسكرية المطلق له. كما أنه حرف غاية الجيش بتحويله إلى أداة للقمع.

يتبع